

الزّمن في الفكر الإسلامي: من عمق المفهوم إلى أزمة بناء الحضارة

*Time in Islamic Thought: From the Depth of the Concept to
the Crisis of Building Civilization*

د. سلوى بن أحمد: أستاذ مساعد، جامعة الزيتونة، تونس

Dr. Saloua Ben Ahmed: Assistant Professor, Zitouna University, Tunisia

Email: Salouabenahmed22@gmail.com

الملخص

يتطرق هذا البحث إلى مفهوم الزمن من حيث هو فضاء زمني تاريخي للفعل الإنساني ومن حيث هو بعد أزلي إلهي متمثل في مفهوم الدهر، إنَّ البعد الأزلي الذي هو الدهر المطلق والذي هو الله سبحانه وتعالى أوجد الدهر النسبي الذي هو جلّ المخلوقات، وبناء على ذلك لم يكن هذا الوجود ولا هذا الزمن الذي هو جزء من هذا الوجود عشوائياً، ولهذا كان هدف هذه الدراسة هو إبراز أهمية الوقت الذي هو زمن ومدة تواجدنا على قيد الحياة فوق وجه البسيطة، لكنّ هذه المدة لا يجب أن تنقضي دون فعل يؤرّخ لها ويبين مدى أهمية هذا التواجد البشري بما يعني صنع الحضارة، هذه الحضارة التي تمثل هويّة كلّ مجتمع بشري.

الكلمات المفتاحية: الزمن، الحضارة، الإنسان، البناء.

Abstract

This research deals with the concept of time in terms of it is a historical time space for human action and in terms of it is an eternal divine dimension represented in the concept of the age, the eternal dimension, which is the absolute age, which is God Almighty created the relative age, which is the bulk of creatures, Consequently, neither this existence nor this time that is part of this existence was random.

Therefore, the aim of this study was to highlight the importance of time, which is the time and duration of our existence on the face of the earth, but this period should not elapse without an action that chronicles it and shows the importance of this human presence, which means the making of civilization, this civilization that represents the identity of every human society.

Keywords: The time, civilization, human, construction.

مقدمة

يعتبر الزمن فضاء للفعل الإنساني حيث تتأطر داخله مختلف أنشطة الإنسان، وقد اختلفت تعريفاته باختلاف المقصد في ذلك، فهو المدة القابلة للقسم، وهو متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم. لقد مثل الزمن مقياساً لتأريخ الأحداث المختلفة منذ بداية الإنسانية على وجه الأرض، إلا أن المجتمعات البدائية لم توله اهتماماً كبيراً، غير أنهم كانوا يعتمدون على الأحداث الكبرى للتأريخ كحرب البسوس أو عام الفيل وغير ذلك.

إلا أنه بتقدم العصور أصبح الإنسان يعطي أهمية كبرى للزمن، حتى كوّن عدّة حضارات في مختلف أصقاع العالم، ومنها ما شكّل لغزاً إلى يوم الناس هذا كالحضارة السومارية التي نشأت بالعراق خلال القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، والحضارة الكنعانية التي نشأت في فلسطين وتلتها العبرانية، وحضارة الأنباط على أرض الشام، وحضارة مصر القديمة المتمثلة في تاريخ فرعوني لم تفك أسرارها بعد وقد مثلت الأهرامات أهم آثاره، وحضارات المغرب العربي من الفينيقية إلى القرطاجية والرومانية والبيزنطية وغيرها...

إن كل ما سبق ذكره يمثل بصمة لإنسان الماضي، غير أننا لا نرى اليوم إلا بصمة جمود وركود لإنسان الحاضر الذي أصبحت آخر اهتماماته فكرة الحضارة، ربّما يمكننا أن نجد أسباباً كثيرة لعزوفه هذا عن البناء والتجديد، ولكن هل يمثل هذا الموقف الذي اتخذته حلاً للمعضلات التي يواجهها أم أنه جريمة في حق الإنسانية؟

والإشكالية المطروحة بناء على ما سبق: ما هو المفهوم الدقيق للزمن؟ ولما يتوقف بناء الحضارات على الأزمنة؟ وهل للمجتمعات المعاصرة فقه بأهمية الزمن وتحوله؟

منهج هذا البحث:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لحيثيات المسائل التي طرحناها في ثنايا هذا السرد أين حللنا الأحداث والوقائع ودققنا وصفها، ومن ثمّة أدرجنا بعض النقد أحياناً في بعض المواضع، إلى أن خلصنا إلى الاستنتاجات.

أهمية هذه الدراسة:

تكمّن أهميّة هذا الموضوع في كونه قد تناول أهمّ المسائل المطروحة اليوم للنقاش وهي اضمحلال التفكير في مسألة الزمن من حيث أنّه عنصر إنتاج لمشاريع فكرية وعملية، وباضمحلال هذه الفكرة اضمحلت حضارة المجتمعات الإسلامية الصّاربة في القدم، نتاجاً لعدّة عوامل مثلت عوائق لهذه المجتمعات للنّهوض من جديد.

المبحث الأول: مفهوم الزمن

أ- الدلالة اللغوية للفظ الزمن

ورد الزمن في المعاجم اللغوية بمعان عديدة، فهم في القاموس المحيط اسم لقليل الوقت وكثيره^١، والجمع أزمان وأزمنة وأزمن، وهو أيضاً دلالة على المكث والإقامة، والزّمان آفة في الحيوانات، ورجل زمن اي مبتلى، ويطلق على مدة الحياة الدّنيا كلّها^٢.

وذهب ابن منظور للقول أنّه اسم لقليل الوقت وكثيره، والجمع أزمنة وأزمن، والاسم من ذلك الزمن والزّمنة، وأزمن بالمكان أقام به زمانا، وعامله مزامنة وزمانا، والزّمان زمن الرّطب والفاكهة، وزمن الحرّ والبرد، ويكون شهرين إلى ستّة أشهر، ويقع على مدّة الدّنيا كلّها^٣.

وبناء على مختلف هذه التعريفات اللغوية نخلص على أنّ لفظ الزمن يدلّ على معان كثيرة ومنه الوقت الكثير والقليل الماضي والحاضر والمستقبلي، وهو التّعاقب والتكرار، وكذلك المرض الذي يصيب الإنسان.

ومن زاوية لغوية أخرى يمكن أن نلاحظ أنّ الزمن هو بعد فيزيائي للمكان من حيث أنّه وسيلة لترتيب مختلف الأحداث والوقائع، سواء كانت فيزيائية أو نفسية أو تخيلية كلامية وغيرها.

وبناء على ما سبق، إذا ما قلنا أنّ الزمن قد ربط بمحدّدات المكان، بالتالي فهو مرتبط بمفهومين أساسيين وهما الديمومة والامتداد الذهني، لكنّه بشكل عام العامل الأساسي لتأريخ وترسيخ مبادرات البناء الإنساني وفق سلّم زمني مرتّب.

^١ بن يعقوب، مجد الدّين، (١٩٥٢)، القاموس المحيط، ط٢، القاهرة، شركة مصطفى البابي، ص٥.

^٢ هارون، نبيل عبد السلام، ١٩٩٤م المعجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، مجمع اللغة العربيّة، ص٢٩٢.

^٣ ابن منظور، جمال الدّين، (١٩٩٧م)، لسان العرب، ط٣، بيروت، دار صادر، ص١١٦٨.

ب- الزّمن في القرآن الكريم:

ربط القرآن الكريم وعي الإنسان بالزّمن وجدانيًا، على اعتبار وأنّ إحساس هذا الأخير بحركة ما حوله يجعله بديهياً يدرك الزّمن، غير أنّه إذا ما فقد إحساسه بهذه الحركة فقد بالتّالي إحساسه بهذا الزّمن، والمثال واضح جليّ في قوله تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

كما قد وجّه القرآن الكريم الفكر البشري إلى الحركة الديالكتيكية لمختلف المحدثات كحركة الكواكب والتداول بين الليل والنهار وتعاقب الفصول وغير ذلك، حتّى يكتشف أنّ الزّمن متحرك غير ثابت وحركته هذه تدلّ على نسبيته، ومنه قوله تعالى:

﴿وَأَيُّ لَيْلٍ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٥﴾، وإذا ما أمعنا في آي الذكر الحكيم وجدنا أنّ فكرة الزّمن قد وردت على مستويين:

• المستوى الأول اصطلاحي:

ويتجلى ذلك من خلال ورود المصطلح ضمن عدّة تسميات منها:

- السّرم
- الآن
- الحين
- المدّة

٤ البقرة، الآية ٢٥٨.

٥ يس، الآيات ٣٦ / ٣٧ / ٣٨ / ٣٩.

- الأمد
- الأبد
- الخلد
- الوقت
- العصر
- الدهر

• المستوى الثاني فلسفي:

حيث أثار القرآن الكريم قضايا فكرية فلسفية متعلقة بالزمن، قامت على أساسها عدّة دراسات كلامية قسّم الزمن خلالها إلى زمن مطلق وآخر طبيعي، أين طُرحت تبعاً لذلك عدّة إشكالات منها مسألة القدم والحدوث وفكرة التّقدّم والتأخّر الزماني.

تأثرت مختلف هذه المسائل من المعنى المرادف لمصطلح الزمن وهو الدهر، على اعتبار وأنّ لفظ الدهر أعمّ وأشمل وأعمق في المعنى من الزمن.

بالتالي يحيلنا ما سبق مباشرة لطرح مفهوم الدهر الذي اتفق أنّه إشارة إلى امتداد وجود ذات من الدّوات وهو ينقسم إلى قسمين دهر مطلق دهر ونسبي.

فأمّا الدهر المطلق فهو وجود ذات لا ابتداء لها ولا انتهاء لها، لم يسبقها العدم ولن يلحقها العدم وهو الله سبحانه تعالى، وقد أخرج البخاري في صحيحه الحديث القدسي المشهور عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم "يسبّب بنوا آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار"^٦.

وأما الدهر النسبي فهو وجود ذات ذات بداية وذات نهاية وهو الذي يطلق على مختلف الحوادث والمخلوقات.

وبناء على ما سبق، يمكننا الإشارة إلى الأهمية الكبرى للزمن والتي تجلّت من خلال آيات الذكر الحكيم في عدّة مواطن، الأمر الذي حدا بالفخر الرّازي لاعتباره أشرف حتّى من المكان، حيث قال

^٦ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب "لا تسبّوا الدهر"، حديث رقم ٥٨٥٢.

"وقد بينا أنّ الزّمان أعمّ وأشرف من المكان فلمّا كان كذلك، كان القسم بالعصر قسماً بأشرف النّصّفين من ملك الله وملكوته"^٧.

المبحث الثّاني: الزّمن سلاح ذو حدين من البناء إلى السّقوط الحضاري

أ- عوامل بناء الحضارة

لا نسعى أن يكون تقديمنا لمسألة الزّمن تقديم ديني من جهة أو كلاسيكي من جهة أخرى، لكننا صراحة لا نبتغي من هذا المقال الوقوف عند حدّ الزّمن اقتصاراً على المفهوم، وإنّما أردنا مداعبة ذاكرة ووجدان أفراد مجتمعنا الإسلاميّ الذين مات فيهم الإحساس بأهميّة الزّمن حتّى رانت مظاهر التّخلف على جلّ المستويات الحيّاتيّة، فإنّ للحضارة عناصر ومقومات لا بدّ من تواجدها لبنائها وترسيخها، وإلاّ فإنّها زائلة كزوال الشّمس حتّى المغيب، ما يحيلنا لطرح ثلاثة عوامل أساسيّة لبناء الحضارات وهي:

• الإنسان

الإنسان هو العامل الأوّل والأساسي لبناء أيّ حضارة، على اعتبار أنّه محور البناء والإعمار والتّغيير، وعلى هذا الإنسان أن يكون مدركاً لهذا الدور وضروريّته، بالتّالي تأقلمه مع مختلف الظروف الحيّاتيّة وتقلّباتها وأن يكون على درجة كافية من الوعي الذي يمكنه من عدم الانحدار في مستنقع الاستحالة والعجز وعدم المقدرة، يقول تعالى في محكم تنزيله:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٨.

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^٩

^٧ الرّازي، فخر الدّين، (١٩٨١)، مفاتيح الغيب (التّفسير الكبير)، ط١، دار الفكر، ج٣٢، ص٣٤.

^٨ البقرة، ٣٠.

^٩ النّور، ٥٥.

بالتالي فالإنسان كائن مدرك لذاته دون نكران أو نرجسية وإنما بعقلانية تمكنه من استغلال وقته ووطنه على الشاكلة التي تبني وتصقل وتجمل الهيئة الاجتماعية على اعتبار وأن هذه التنمية تصنع للإنسان كما ذهب مالك بن نبي ما يمده في رفع مستواه من مدرسة أو مستشفى، ومن إدارة تسهر على رعاية مصالحه إلى غير ذلك.^{١٠}

• الرقعة الجغرافية

الرقعة الجغرافية هو الوطن الذي نسكنه ونقطن وإليه ننتمي، وقد اصطلح عليه عند مالك بن نبي بالتراب حيث رأى أن غلاء هذا التراب تحدده القيمة الاجتماعية لسكانه فمتى كانت قيمتهم وحضارتهم مرتفعة ومنتظمة غلت قيمة هذا التراب والعكس متى كانت قيمتهم متدنية وعلى قدر من الانحطاط فإننا نجد التراب على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذي يعيشون عليه.^{١١}

• عنصر الوقت

إن تحقيق الزيادة والتقدم والتحكم في التاريخ والمصير مرتبط بالوعي بالزمن وامتلاكه بما ينجز فيه من أعمال وإبداعات في شتى الحقول المعرفية، فالإنسان الألماني استطاع أن يسترجع كل ما خربته له الحرب العالمية الثانية في وقت قصير جداً، والسبب في هذا لا يخرج عن موقف الإنسان الألماني من الوقت، الذي تمثل في مجموعة من الإجراءات، منها على سبيل المثال لا الحصر، مضاعفة ساعات العمل وتقديس الوقت ورفض الإهمال والتراخي في العمل، والنهضة الإسلامية نفسها انطلقت من مبدأ تقديس الوقت يقال "الوقت من ذهب" و"الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك"^{١٢}، إلى غير ذلك...

إن ثلوث الإنسان والتراب والزمن هو المقوم الأساسي الذي يولد أي حضارة أو ينفىها والإنسان يُمتل الحياة والفهم الصحيح أو الخاطئ لمسألة القضاء والقدر، ما يؤثر على الحركة والفعل الإنساني بالتالي مدى الأخذ بسنن الحياة الكونية والاجتماعية بما يساهم في تكريس قيم الزمن في إرساء حضارة إنسانية كمفهوم مقدس للزمن باعتباره بعداً دينياً.

^{١٠} بن نبي، مالك، (١٩٨٦م)، شروط النهضة، دار الفكر، ص ١٤٦.

^{١١} بن نبي، شروط النهضة، ص ١٣١.

^{١٢} عكاشة، شايف، (١٩٩٣)، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص ١٠٩.

ولا حضارة دون مكان، حيث يلعب الإطار المكاني دورا هاما في إنتاج الفعل الإنساني، وهو ما قصده بن نبي بقوله "مشكلة التراب"، فتسخير الأرض لصالح العباد والبلاد واستثمار خيراتها هو ما يبني حضارة أصلية لمجتمع ما داخل حدود تراب وطن ما، الأمر الذي يساهم في رفع قيمة ذلك التراب وغلاء سعره، بالتالي قوة وأهمية تلك الحضارة من عدمها.

ومن جهة أخرى فإن وعي الإنسان بالزمن وبقيمه وبضرورة استثماره في العمل والإبداع يُشكّل العقلية المطلوبة التي تحترم هذا الحيز الزمني لتجعل منه فضاء للفعل والحركة ما يؤسس لمعالجة الفكر الإنساني والتاريخ القادم.

ب- معوقات الحضارة

للفرد أن يطرح سؤالاً مشروعاً ومشروعاً جداً إن شئنا، وهو لماذا فقدت المجتمعات الإسلامية الإحساس بأهمية الزمن حتى صار يومها الحاضر كيوومها المنقضي؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال من خلال ثلاث نقاط في الغرض ليست وحيدة لكنها تمثل أهم العوامل الرئيسية للتراجع الحضاري وهي:

• ظاهرة الفقر:

أصبح هدف وهم المسلم الأول والأخير لأجل هذا العصر توفير لقمة العيش وإذا ما توجّح يومه بعشاء يسكت أفواه أفراد العائلة فهذا إنجاز كبير في حد ذاته، ونحن لا نبالغ في ذلك بل العكس تماما وقد يدعم كلامنا هذا المؤشرات والنسب المرتفعة للفقر داخل البلدان الإسلامية، وينعكس ذلك أيضا من خلال تدني مستوى ناتج الأجر الخام للفرد والارتفاع المشط للمعيشة بما ينعكس سلبا على أفراد هذه المجتمعات ليصبح ما سبق ذكره إنجاز جبار في هذا الخضم.

ولكن السؤال الأجدر من سابقه والأولى بالطرح هو، لماذا صار حال المجتمعات الإسلامية في الحضيض وفي الدرك الأسفل لبقية المجتمعات الأخرى الغير مسلمة؟ أو ليست ديانة الإسلام هي الديانة العظمى التي فتحت للإنسان أبواب الحضارة على مصراعيها وأخرجته من مستقع التخلف والعبودية وفتحت له البصر والبصيرة للبحث والتقصي والمعرفة والعلم؟

ولماذا صار علماء الإسلام والموروث الإسلامي حكايا يتشذق بها المسلمين ليُعيدوا أمجاد الماضي ضمن تاريخ وقصص تجبرُ خواطرهم؟

إنّ الأجوبة الحقيقيّة على مختلف هذه الأسئلة نصفها معلوم ونصفها الآخر مجهول أو لنقل أنّه مجهول عند الأغلبية ومعلوم عند أقلية، وللطبقة السياسيّة الشّان الكبير في هذه النّتيجة وهي النّقطة الموالية.

• الممارسات السياسيّة:

تعتبر الأنظمة السياسيّة الحاكمة اليوم أهمّ عنصر من عناصر التّراجع الحضاري وانهدام هذا البناء العريق لصرح المجتمعات الإسلاميّة التي توّسسه منذ أمد طويل وقدم ضارب في التّاريخ، وهذا التّطرّف السياسي متأتّ صراحة من عدّة عوامل أساسيّة أهمّها الاستعمار الغربي للدول الإسلاميّة بغاية السيطرة عليهم وضرب أهمّ منبع لهم والذي يمثّل الدافع الأوّل والرئيس لتقدّم هذه المجتمعات وبناء الحضارة وهو الإسلام ومبادئ هذا الدّين.

لقد مثّل الاستبداد السياسي عاملا هاما لتفشّي الجهل والفساد والانحراف في مجتمعاتنا العربيّة الإسلاميّة، ويتجلّى ذلك كثيرا في الآونة الأخيرة بعد الثّورات العربيّة التي عاشتها هذه المجتمعات ما أدّى إلى تقسيمها عرقيا ودينيا إلى طوائف ومذاهب لا تمتّ للإسلام بصلة.

لقد أنتجت هذه المذاهب آراء شاذّة مختلفة وغريبة على عاداتنا وتقاليدينا، والعجيب في الأمر إنّها تحاول إقحام نفسها لتكون غصبا ضمن منظومة فكرنا الإسلامي المعتدل.

إنّ التّراجع الفكري الذي وصلت إليه مجتمعات الإسلام أدّى إلى احتضار مختلف الأجنّة الجديدة التي كادت تبرز كظواهر حضاريّة جديدة في البلدان العربيّة الإسلاميّة، أو ولدت مشوّهة نتيجة للغزو الغربي سواء الفكر أو الثقافي.

ما سبق طرحه يقودنا إلى فكرة أو نظريّة "التّكديس" التي قال بها مالك بن نبي حيث اعتبر أنّ العالم الإسلامي يتجه إلى جمع الأكوام من المنتجات الحضارية أكثر من اتجاهاه إلى بناء حضارة فينتهي

الأمر إلى الحضارة الشيئية، فالتكديس لا يعني البناء لأنّ البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة التي تكوّن منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكوّن الحضارة.^{١٣}

الانحراف في المبادئ والأفكار سبب هام لانحراف المجتمع، ما يؤدي إلى الزّيف من جيل إلى جيل عن طريق الامتصاص، وتعتبر الأفكار في هذه الحالة هي الجرائم التي تكون كالعوى الاجتماعية لنقل الأمراض. فينعكس المرض على المجتمع، وأحياناً قد يحدث انعكاس الفكرة المردودة فيعود ذلك بالخير بسبب اكتشاف بطلانها^{١٤}.

إنّ الوعي والنّضج الفكري بمخططات تحطيم الحضارة الإسلاميّة مطلب ملح لتجديد البناء الحضاري، ففاعليّة العقل الغربي كبيرة جدّاً ارتكزت بالأساس على فاعليّة اجتماعيّة اعتمدت على تخطيط منهجي لا يحتوي خليطاً من الأفكار المتناقضة.^{١٥}

إنّ أهميّة الوعي بالزّمن في بناء الحضارة مسألة جدّ مهمّة، على اعتبار وأنّ الحضارة مرحلة متقدّمة من النّمو الفكري والثّقافي والاجتماعي.

وقد ذهب مالك بن نبي إلى أنّ مشكلة الحضارة التي نعاني منها اليوم في مجتمعاتنا متشعبة وإنّنا "مضطربون أحياناً إلى أن نفكر في هذا النقص الذي أصاب الإنسان، فقعد به عن ملاحقة توقيت التاريخ، وأن نفكر في سدّ هذا النقص الذي أصاب الإنسان"^{١٦}، وعلى رأي الرّجل إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ^{١٧}.

• الغزو الفكري الغربي:

من أهمّ أسباب سقوط الحضارة هو الغزو الفكري الغربي، وهو غزو جذري لامس مختلف المجالات الحياتيّة للفرد المسلم، السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة خاصّة وحتىّ الدّين للأسف، ومن الملاحظ جيّداً هذا الشّتات الذي تعيشه المجتمعات العربيّة نتاجاً لهذا الغزو المتمثّل أساساً في حركات الاستشراق.

^{١٣} بن نبي، مالك، شروط النّهضة، ص ٤

^{١٤} بن نبي، مالك، (٢٠٠٢)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط٢، بيروت، دار الفكر، ص ١٥٨.

^{١٥} بن نبي، مالك، (٢٠١٢)، وجهة العالم الإسلامي، ط١، دار الكتاب المصري اللبناني، ص ٩٧.

^{١٦} بن نبي، مالك، (١٤٢٠هـ)، مشكلة الثّقافة، بيروت، دار الفكر، ص ٩.

^{١٧} بن نبي، مالك، (٢٠١٣)، البناء الجديد، ط١، سوريا، دار الفكر، ص ٥٠.

ومثل هذا الغزو خطير جدًا على اعتبار وأنه سلاح قوي لإذابة الشعوب وطمس هويتها وانسلاخها عن عقائدها، فتصبح شبيها مشوها لغيرها، بالتالي يتضخم الأنا الغربي ويضمحل الأنا العربي الذي رضخ وفتح بابه للاستعمار الفكري.

هذا الغزو نتاجا أساسا لظاهرة العولمة والتي هي ظاهرة عالمية عرفها المجتمع الإنساني عامة، وهي كما تعارف عليها "نسبة أمر ما إلى العالم، وذلك عن طريق الخروج به عن التوقع في القوم أو المنطقة أو الإقليم إلى الاندماج في العالم بمعناه الشامل الواسع".^{١٨}

وهي خطر موجّه للعالم الإسلامي بالأساس حيث أنها "المنهاج الغربي الأمريكي يسعى لجرّ العالم العربي والإسلامي خاصة حتى يصبح جزءا لا يتجزأ من جهاز يتمثل في مجتمع كبير، تحركه الإدارة الأمريكية لمصلحة الصهيونية العالمية"^{١٩}.

ولقد كانت هذه العولمة على أشكال وأصعدة مختلفة، سياسية، واقتصادية، وفكرية وثقافية وغيرها وعليه فهي بمثابة العصا الغليظة التي سلّطت على العالم العربي، على اعتبار وأنه قد جُبر إلى دخول عصر العولمة دون جاهزية أو استعداد كاف، مما أدى إلى تفاقم الأزمات وتصدّع الكتلة العربية عامة.

وهذه العولمة كانت بابا كبيرا للعلمانية التي هي اللادينية حتى تتصدّر المشهد، وتوجّه أصابع النقد والاتهام للإسلام والمسلمين، وإن كانت أصابع مرتعشة ليست في الاتجاه الصواب، وعلى رأي الدكتور البوطي "الحق يناجي العقل دائما، أما الباطل فإتما يُحاول أن يتسلّل خفية منه إلى رغائب النفس، والحق يتعامل مع الناس بالأدلة والبراهين الحرة، أما الباطل فيستعين للوصول إلى نفوس الناس بالكاريكاتير الساخر، أو التشويه الكاذب، أو الصور المستبشعة"^{٢٠}.

وهكذا هي العلمانية تشويه كاذب لثقافتنا، وهكذا هي العولمة ذوبان في ثقافة الآخر، وهكذا هو الغزو الفكري انبطاح تقديس للآخر ورفض للموروث.

^{١٨} البوطي، محمد سعيد رمضان، قضايا ساخنة، دار الفكر، ص ٢١٩.

^{١٩} ن م، ص ٢١٩.

^{٢٠} البوطي، محمد سعيد رمضان، (٢٠٠٤) إلى كلّ فتاة تؤمن بالله، ط٢، دار الفرابي، ص ٩.

خاتمة

يحتاج المشروع الحضاري إلى نظرية سليمة لاستغلال الزمن، الذي يمثل مادة هامة وأساسية يتأطر داخلها الفعل الإنساني، هذا الفعل الذي يصنع تاريخ البشرية، بالتالي وجب تطوير وتفعيل الأفكار وعدم الرضوخ للواقع.

ويمثل الاهتمام بمختلف العلوم التي تساهم في بناء مجتمع مثقف وواع حلاً مهماً لإيقاف نزيف الجمود الفكري، واستغلال الزمن بصورة سليمة فهو من العناصر المتحركة والمتقدمة فلا يقف ولا يعود وهو بالنهاية فترة حياة الإنسان الدنيوية وهو الدهر النسبي.

والدهر المطلق وهو وجود ذات لا ابتداء لها ولا انتهاء لها، لم يسبقها العدم ولن يلحقها العدم وهو الله سبحانه تعالى، فكانت المفارقة بين الأزمنة تنويه على وجود خالق ومخلوق، ووجود حي دائم مطلق، وآخر حي مؤقت.

ولقد لعبت بعض الظواهر الاجتماعية والسياسية دوراً هاماً في مرور الزمن العربي الإسلامي بمرحلة سبات عميق استحالته معه تطوّر الحضارة الأولى لهذه الأمة أو تجديدها، ذلك نظراً لمختلف الظروف والأزمات التي عاشتها هذه المجتمعات والتي أفقدتها إحساسها بالزمن.

إنّ بناء حضارة جديدة يحتاج لعقل بشري واع بضرورة التطوّر، ويحتاج لوطن يؤمن به وبقدراته، وحسن استغلال الزمن، ثلاثة عناصر أساسية لو توقّرت يمكن من خلالها بناء الحضارة المعاصرة الجديدة.

المراجع

- ١- ابن منظور، جمال الدين، (١٩٩٧م)، لسان العرب، ط٣، بيروت، دار صادر.
- ٢- بن نبي، مالك، (٢٠١٣)، البناء الجديد، ط١، سوريا، دار الفكر.
- ٣- بن نبي، مالك، (١٤٢٠هـ)، مشكلة الثقافة، بيروت، دار الفكر.
- ٤- بن نبي، مالك، (١٩٨٦م)، شروط النهضة، دار الفكر.
- ٥- بن نبي، مالك، (٢٠٠٢)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط٢، بيروت، دار الفكر.
- ٦- بن نبي، مالك، (٢٠١٢)، وجهة العالم الإسلامي، ط١، دار الكتاب المصري اللبناني.
- ٧- بن يعقوب، مجد الدين، (١٩٥٢)، القاموس المحيط، ط٢، القاهرة، شركة مصطفى البابي.

- ٨- البوطي، محمد سعيد رمضان، قضايا ساخنة، دار الفكر.
- ٩- البوطي، محمد سعيد رمضان، (٢٠٠٤) إلى كلّ فتاة تؤمن بالله، ط٢، دار الفرابي.
- ١٠- الرّازي، فخر الدّين، (١٩٨١)، مفاتيح الغيب (التّفسير الكبير)، ط١، دار الفكر، ج٣٢.
- ١١- صليبا، جميل، (١٩٩٤)، المعجم الفلسفي، ط١، الشركة العالميّة للطباعة، ج١.
- ١٢- عكاشة، شايف، (١٩٩٣)، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة.
- ١٣- هارون، نبيل عبد السّلام، ١٩٩٤م المعجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، مجمع اللّغة العربيّة.